الوطن العربي

-2- تبسيط أسباب النكسة بإهمال أسبابها الهامة هروب من مواجهة الصعاب. لن نسحق بنكسة ولن نبعث بنصر وإنما نبني وجودنا بملحمة من الكفاح المرير.

الخطأ الكبير جداً في رفع شعار انتهاء المعركة مع الاستعمار مما ترك المـسرح للاسـتعمار الحديث عندما يكون هنالك إعداد جيد للمعركة ضد إسرائيل فالنصر سيكون حليف العرب المعركة تبقى مع الاستعمار الأميركي حتى ولو صفيت إسرائيل نهائياً.

نتساءل اليوم عن أسباب نكسة الخامس من حزيران. والكثيرون منا يبسطون الأمر حتى يصل بعضهم في التبسيط إلى القول بأن تجسس الباخرة الأميركيـة "ليبرتـي" علـى الاتـصالات اللاسلكية للجيش العربي في سيناء كان السبب الأساسي في هذه النكسة. والكثيرون منا يأملون من أعماقهم بأن يكون التغلب على صعوباتنا الراهنة متعلق بمعركة عسكرية أو سياسية ظافرة نزيل بها أثار العدوان، وذلك بعد اعداد هين مبسط لهذه المعركة.
وبرأيي أن الميل إلى تبسيط أسباب النكسة بإهمال أسبابها الهامة مع التوهم بأن مجرد إزالـة أثارها بالعودة إلى ما كنا عليه قبلها يحل مشاكلنا ويعيدنا إلى الحياة الهينة اللينة أمران ينبعـان من منبع واحد هو الهروب من مواجهة الصعاب. ذلك لأن معركتنا الأخيرة ما هي إلا مـشهد طويل خضناه ونخوضه وسنخوضه إلى أن يتم تحررنا مـن الاسـتعمار، ونـصبح الـسادة المطلقين لثرواتنا ومصيرنا. ولقد مر معنا بشيء من التفصيل أن البلد النامي لا بد لـه مـن الانفصال عن شبكة الرأسمالية العالمية ليتمكن من تدارك تخلفه بالالتحاق بشبكة الاشـتراكية العالمية، وإن هذا الطريق هو طريق حتمي في مرحلة تحول جملـة المجتمعـات الإنـسانية الراهن إلى الاشتراكية. فالبلاد العربية النامية التي تحتل كما قلنا في مثال سابق ذلك المركـز البالغ الخطورة في شبكة الرأسمالية العالمية وتملك كل تلك الثروات الهائلة من المواد الأوليـة الثمينة وقوى العمل الإنساني، هذه البلاد في صراع دائم مع الاستعمار الذي ينهبها فلا يتركها تسير بسلام في طريق التحرر والانفصال عن شبكته وهو يفعل كل مـا باسـتطاعته ليوقـف سيرها هذا وليبقيها أبداً متخلفة تابعة له. ومن جهة أخرى لا يمكن لشعبنا أن يكتفـي بتحـرر بعض أقطاره بتصفية علاقات الإنتاج الرجعية، ولا بد له من أن يستكمل تحرر جميع أقطاره من هذه العلاقات أثناء تقدمه في بناء دولته الاشتراكية الكبرى، وذلك لتشابك مصالحه الحيوية تشابكاً عضوياً في كل أنحاء وطنها الكبير. وهذا أمر يطيل أمد معركة التحرر من الاستعمار والرجعية في جميع الأقطار العربية المتحررة منها وغير المتحررة إلى أن تتحقق تلك الدولـة

العربية الكبرى منفصلة عن شبكة الرأسمالية العالمية. أي أن نضالنا ضد الاستعمار مستمر ومعاركنا معه لم تنته بنيلنا الاستقلال السياسي ولا ببدء تحرر بعض أقطارنا من شبكته العالمية ولا بد لها من أن تمتد حتى يتم تحرر وطننا الكبير بجميع أقطاره من الرأسمالية العالمية. فلن نسحق إذن بنكسة كما لن نبعث بنصر وإنما سنبني وجودنا بملحمة من الكفاح المرير.

وإنه من المفيد لنا أن نتعظ بما مضى كي لا نقع في أخطاء كما قد وقعنا فيها في الماضي فسببت لنا النكبات. فلنحاول إذن إلقاء الضوء على بعض الأخطاء الكبيرة التي ارتكبناها في السنين الماضية. فقد وقع بعضنا في خطأ كبير جداً عندما رفع شعار "انتهاء المعركة مع الاستعمار" في الأيام الأولى للوحدة المصرية – السورية، في الوقت الذي نحن فيه بلد نام في صراع مرير ودائم طيلة عملية نمونا مع هذا الاستعمار. وصحيح أن الاستعمار القديم وخاصة منه البريطاني والفرنسي قد حورب بكل ضراوة في هذه الفترة من قبل قوى التحرر الوطني في كل أنحاء الوطن العربي، إلا أن الاستعمار الحديث وخاصة منه الأميركي والألماني الغربي قد ترك على غاربه يسرح ويمرح في وطننا الكبير، ولا من ينظم مقاومته بشكل حازم مجد على الرغم من كل تخريباته التي كنا نلمسها باليد والتي كان غبارها يعمي أبصارنا. وقد تغلغل هذا الاستعمار بنفوذه في مجتمعنا تغلغلاً كبيراً فكان له من العملاء والخدم والمجندين حتى في صفوف القوى الوطنية فضلاً عن صفوف الرجعية وبيوتاتها. وهل نحن بحاجة الآن إلى أن نضرب الأمثال بتسمية بعض هؤلاء العملاء الذين كانوا يشغلون المراكز الخطيرة في التوجيه والقيادة ممن طالتهم يد العدالة؟ إننا لسنا بحاجة إلى هذا لأننا لسنا في مجال كتابة المقالات المثيرة التي يتلذذ بها نوع خاص من القراء فضلاً عن أن جماهيرنا كانت وما تزال تلمس آثار نفوذ المستعمرين الجدد في الكثير من مجالات حياتنا الاجتماعية ولقد قلنا في مقالاتنا السابقة أن الاستعمار الأميركي أعد قوة رهيبة إلى جانب قواه الأخرى وهي قوة التخريب والتجسس والدعاية التي تشرف عليها أجهزة المخابرات المركزية والتي تعمل جنباً إلى جنب مع القوى الأخرى في الهجوم الأميركي على العالم النامي. ولننظر إلى هذا الخبر الذي نشرته جريدة الهدف اللبنانية في 3 تشرين الثاني عام 1967:

"بلغراد – 2 رويتر- ذكرت صحيفة بوربا اليوغسلافية الرسمية أن وكالة استخبارات أجنبية هي أنشط وكالة استخبارات أجنبية في يوغسلافية وهي تغطي البلاد بشكل تام وشامل..."

وقلنا أيضاً في مقال سابق أن هذا الاستعمار قد غطى بشكل خاص وطننا العربي الكبير بشبكة أضخم بكثير من هذه التي يغطي بها يوغسلافيا. وفي هذه الشبكة تشكل سفارات الدول الاستعمارية وفي طليعتها سفارات أميركا مع دوائر الشركات الأجنبية لاستثمار الثروات العربية أهم قواعد انطلاق الجواسيس والمخربين والمتآمرين. وهنا نتساءل فيما إذا كانت

الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي مثلاً يشكوان من وجود شبكة تخريبية تمتد على أراضيهما مثل امتداد تلك الشبكة على أرض وطننا وتعمل عندهما أجهزتها بمثل هذه الحريـة والنـشاط اللذين نشاهدهما في أجهزة التخريب الاستعمارية عندما تمارس هذه الأجهزة عملها في عالمنا العربي.

من البديهي أن لا نطمح في ظروفنا الحالية بأن يكون استقلالنا عن شبكة الرأسمالية العالميـة شبيه باستقلال هاتين الدولتين الاشتراكيتين الجبارتين لنستطيع شلّ عمـل شـبكات التخريـب الاستعمارية على أرض بلادنا إلى هذه الدرجة التي نشاهدها في البلدين الآنفي الـذكر، إلا أن سيرنا في طريق التحرر من شبكة الرأسمالية العالمية قد يتعطل عندما نترك الأمور في هـذا المجال تسير على غاربها وعندما لا نتخذ كل الإجراءات الكفيلة بمنع تفاقم أعمال التخريـب من كل نوع. وإن من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نكسة الخامس من حزيران هو التهاون في مكافحة تخريب المستعمرين الجدد في مجتمعنا. والذي سهل علـى هـؤلاء المـستعمرين أعمالهم التخريبية، هو رفع ذلك الشعار المشؤوم شعار "انتهاء المعركة مع الاستعمار" الـذي قام على جهل مريع بطبيعة المرحلة التي نمر بها وبطبيعة الاستعمار الحديث: ولقـد وصـل الأمر إلى توهم البعض بأن بالإمكان جر المستعمرين الجدد إلى مساعدتنا فـي حـل بعـض قضايانا الوطنية!..

وإن مكافحة اسرائيل لن تكون جدية ولن يكتب لها النجاح مالم تأخذ بالحسبان طبيعتها الثابتـة كقاعدة عسكرية سياسية اقتصادية للاستعمار الحديث. يقول الكاتب الصهيوني ريلي وايزل:

"اسرائيل لا تجد سوى صديق (اقرأ سيدي من فضلك) واحد هو: أمريكا، والسبب أن اسرائيل تدافع الآن عن الولايات المتحدة في الخط الأمامي، وأمن اسرائيل مستمد من هذه الحقيقة" وقد ساعد رفع الشعار المشؤوم، شعار "انتهاء المعركة مع الاستعمار"، على تمويه هـذه القاعـدة: انتهاء المعركة مع الاستعمار يفترض بالبداهة أن لا علاقة للأميركان مـثلاً بهـذه "الدولـة" القاعدة وبأعمالها العدوانية واستفزازاتها التي لا تنقطع. ووصل الأمر إلى بـروز نظريـات خيالية سقيمة منها نظرية تبعية أميركا للصهيونية العالمية ونظرية: اسرائيل قاعدة الاسـتعمار الصهيوني الذي هو غير الاستعمار المتعارف عليه والمرادف للرأسمالية العالمية بـالتعريف.

كل هذا وغيره أبعدنا عن الواقع ونشر الفوضى في تقديراتنا للأخطار وجهاتها وكان من جملة الأسباب لتناقض قوانا الوطنية فيما بين بعضها البعض في الوقت الذي كانت فيه بأمس الحاجة إلى تضامن هذه القوى لمنع وقوع مثل تلك النكسة.

وكانت وما تزال تنقصنا الستراتيجية الشاملة المستندة إلى واقعنا كوطن عربـي يـشغل هـذا المركز الخطير في العالم النامي ويتمتع بكل تلك الثروات المعروفة وكل الامكانيات الماديـة والبشرية التي يمكن أن توضع في ساحة الكفاح للتحرر جذرياً من الاستعمار.

ولا ينكر أن الأوضاع السياسية للوطن العربي تعرقل إلـى حـد بعيـد توجيـه مثـل هـذه الاستراتيجية إلى هدفها البعيد فيما لو وجدت: نظرة واحدة إلى الوطن العربي عـشية وقـوع العدوان علينا تبين بوضوح المدى الذي وصل إليه الخلاف بين أنظمة الحكم للأقطار العربيـة القريبة من اسرائيل، هذا الخلاف المزمن الذي لن يزول إلا بقيام تشكيلة اجتماعية اشـتراكية في جميع أقطار وطننا وان كمن تحت الرماد في هذا الظرف أو ذاك.. ثم ان تعدد التشكيلات الاجتماعية وتباينها في أقطارنا العربية ينعكس على تركيب قوى التحرر الوطني فـي هـذه الأقطار فيتعدد هذا التركيب ويتباين بين قطر وآخر: نسبة القوى الاشتراكية مثلا في حركـة التحرر الوطني في سورية أكبر منها في حركة التحرر الوطني في الـسعودية. وهـذا أمـر طبيعي لتقوم التشكيلة الاجتماعية السورية تاريخياً على شقيقتها السعودية. الأمر الـذي يعقـد كثيراً الستراتيجية الآنفة الذكر فيما لو وجدت والتفّت حول هدفها جميع حركات التحرر فـي الوطن العربي. أما والحال على ما عليه فلا يمكن أن تلتقي عليها قوى التحرر الوطني العربية المتباينة بهذا الشكل الآنف الذكر. ومن الواضح أن الاستعمار الذي غطى بلادنا بشبكة جهـاز المخابرات المركزية يجد في مثل هذه الظروف الممتازة بالنسبة إليه كل مجالات العمل لتفريق قوانا الوطنية وضربها وتشتيتها بمساعدة كتل الرجعية والانتهازية المنتشرة هنا وهنالـك فـي وطننا الكبير. وهذا أيضاً من الأسباب الرئيسية التي هيأت للنكسة. وأنه إذا كان من المسموح به أن تفقد الستراتيجية الشاملة التي تلتقي عندها قوى التحرر الوطني العربية نظـراً لافتقـار هذه القوى إلى التجارب في عهد الاستقلال السياسي الذي لم يمض على قيامـه بعـد وقـت طويل، وإذا كان من الطبيعي أن تقوم حركة التحرر الوطني في كل قطر عربي على عدد من القوى المتناقضة بسبب اختلاف تركيبها الاجتماعي في ظروف البلد النامي ذي المجتمع المعقد التركيب، فإنه من غير المقبول أن تقوم قوى التحرر الوطني على أفكار ونظريات وشعارات يلحق تطبيقها العملي الضرر بحركة التحرر ككل من حيث النتيجـة. ولا مـن المقبـول أن تتناقض هذه القوى إلى درجة الاقتتال والتفاني، أو إلى درجة تقوم فيه قوة من هـذه القـوى بضرب وتشتيت شمل بقية قوى التحرر الأخرى التي ما تزال تؤدي دوراً إيجابياً في الحركـة العامة للتحرر: بعد قيام الوحدة وصل الخلاف بين قوى التحرر الوطني في المنطقة العربيـة المجاورة لاسرائيل إلى درجة الاقتتال الوحشي. وقد سبب هذا الخلاف تعثر حركاتنا الوطنيـة في عدد من أقطارنا العربية وأخر نمو رؤيتها الواضحة للواقع كما أصاب بأبلغ الضرر نمـو قوانا العسكرية والسياسية لمجابهة اسرائيل والاستعمار وكان من أهم أسباب النكسة الأخيـرة، بل ربما الأول بين هذه الأسباب.

وبعد، فإن النكسات والهزائم في المعارك المتكافئة التي لا يساء فيها استعمال القوى من قبـل القيادات العليا، كالانتصارات يعد لها زمن كاف قبل وقوعها. أما الأخطاء والنواقص الإضافية

التي تبرز في ظروف المعركة الخارجة عن الإرادة فإنها تزيد في عمق الهزيمة ومـداها ولا تسببها: إن الحرب بين العرب واسرائيل هي حرب متكافئة وان كان الـشعب العربـي مـن الشعوب النامية وكانت اسرائيل قاعدة أميركية. وذلك لأن امكانيات العرب كبيرة جداً من كـل النواحي في الوقت الذي لا تستطيع فيه أميركا أن تنزل بكل حجمها في الحجم الصغير الـذي هو اسرائيل، كما أن هذه الأخيرة لها حدود في استيعاب المساعدات الاسـتعمارية العـسكرية بالنظر لضيق رقعتها وقلة عدد سكانها. وعندما يكون هناك أعداد جيدة للمعركة ضدها فـإن النصر يكون من حليف العرب، ولا يغير في الأمر شيئاً وجود سفينة تجسس أميركية قـرب ميدان المعركة أو وجود عدد من الجواسيس والمخربين في صفوفنا، لأن البناء الجيـد لقوانـا السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية يتمكن بسهولة من شلّ أعمال التخريـب لهـذه العناصر بالإضافة إلى تمكنه من تدارك كل خطأ أو نقص خارج عن حـساباتنا لاحتمـالات المعركة.

وعلى العكس فإن تشتت تلك القوى نتيجة للتخريب من كل نوع والمتمادي علـى عـدد مـن السنين لا بد من أن تظهر أثاره السلبية في الميدان مهما كانت مهارة القـادة. وكـان ثبـات العناصر المنفذة وشجاعتها.

ويتناسب عمق هذه الآثار ومداها مع مقدار تراكم التخريب عند بدء المعركة. إلا أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن المعركة تبقى مع الاستعمار الأميركي حتى ولو صفيت اسرائيل نهائياً، فيجب اذن الإعداد والاستعداد لهذا الاستعمار في كل لحظة.

ولكي لا تبقى هذه النكسة نكسة، ولكي لا تتحول إلى هزيمة يستغلها العـدو للوصـول إلـى أغراضه التي شنّ علينا العدوان من أجلها، علينا أن نقف بثبات للدفاع عن أرضنا وشـرفنا، علينا أن نبذل كل ما في استطاعتنا لإنزال الهزيمة بالعدو وبمخططاته ولانتزاع كامل أراضينا من براثنه، المحتلة مجدداً والمحتلة قديماً، وذلك بالصبر على الكفاح المسلح مهما طال أمـده. إن علينا أن لا نسالم الاستعمار وقواعده من كل نوع وقد آن لنا أن ندرك أن طريـق الثـورة على الاستعمار هي الطريق الوحيد لخلاصنا من التخلف. لقد آن لنا أن نـتعلم أن الرأسـمالية العالمية لا تتركنا أحراراً عند الاستسلام لمخططاتها، بل هي تمعن في امتهاننا ونهبنا في كـل مرة نحني الرأس أمامها:

يا مائل الرأس إن الليث مفترس

ميل الجماجم والأعناق فاعتدل

وان الاعتراف باسرائيل بانهاء حالة الحرب معها هو قبولنا بالاحتلال الأجنبي لأراضينا، وهو لن يفيدنا شيئاً إلا بالحاق العار بنا. ذلك لأن هذه القاعدة الاستعمارية تبقى قاعـدة اسـتعمارية ولا يغير اعترافنا بها من طبيعتها شيئاً ولا بد للاستعمار من أن يستعملها بعدئذٍ بسهولة أكبـر

ليرهبنا بها وليشن بها العدوان علينا في كل وقت يحلو له ذلك. ويقول بعض المتخاذلين بـان إسرائيل حقيقة واقعة أيضاً، وما دامت هذه الحالة قائمة فإن وجود هذه القاعدة مرهون بنتيجة هذه الحرب التي لا بد من أن نكسبها لأننا نسير في خط التـاريخ ولأن الرأسـمالية العالميـة ستزول. وستزول معها جميع قواعدها.ألم يكن الاحـتلال النـازي لمعظـم أراضـي أوربـا ولمساحات شاسعة من الاتحاد السوفياتي حقيقة مادية لا خيالية؟ وماذا كانت نتيجة هذا الواقع؟ هل اعترف به الأوربيون والسوفيات لمجرد كونه واقعاً؟ أما حملوا السلاح وكـافحوه حتـى قضوا عليه وأقاموا واقع التاريخ السائر دوماً نحو التقدم؟ والاستعمار؟ أليس هو واقعاً ماديـاً قائماً في أيامنا هذه؟ فهل علينا أن نقيم واقع التاريخ رغماً عن أنفنا؟ ليتوار إذن هؤلاء الـذين طالما رنّت أقوالهم وأفعالهم مع أوركسترا الاستعمار! ثم إن الاستمرار بالكفاح المسلح يجـب أن يسير جنباً إلى جنب مع تهيئة الأمور التالية:

أولاً: على القيادات التقدمية وضع وتنفيذ استراتيجية شاملة تأخذ بالحسبان وضع وطننا العربي كبلد نام، مجزأ سياسياً، غير موحد من حيث تشكيلاته الاجتماعية القائمة في أقطـاره، يحتـل مركزاً خطيراً في العالم النامي، يملك احتياطاً هائلاً من البترول والثروات الأخرى، فله لذلك مكانة حاسمة في مخططات الاستعمار الحديث. وفي هذه الستراتيجية تعتبر إسـرائيل قاعـدة أمامية للاستعمار، وتصفيتها واسترداد فلسطين هدف أساسي يجب أن نوفر له كل ما يلزم من القوى. وعلى القيادات الآنفة الذكر أن تقوم بإحصاء دقيق للقوى العملية لوطننا من كل نـوع: عسكري واقتصادي وسياسي وشعبي ودولي. والقصد من القوة العملية هو مقدار ما نـستفيده من القوى في كل ظرف: هنالك مثلاً فرقة عسكرية في مكان ما من الوطن العربي فعلينـا أن نقدر مقدار ما يمكننا أن نستفيده من هذه الفرقة في الظرف الراهن فيكون هذا المقـدار هـو القوى العملية للفرقة، وهكذا يمكن تقدير كل قوة عملية من كل نوع. ثم إن استراتيجيتنا تبنـى على هذا الإحصاء لقوى الوطن العربي، وهدف هذه الستراتيجية يكون بطبيعة الحال تحريـر الوطن العربي من شبكة الرأسمالية وإقامة الدولة العربية الاشتراكية الكبرى.

ثانياً: يجب العمل على تعبئة قوى التحرر الوطني تحت قيادة واحدة تنسق نشاطاتها لخـوض المعركة الطويلة القاسية ضد الاستعمار وضد كل مظاهر التخلف السياسي والاجتماعي. وفي هذه الحالة يجب أن يؤخذ بالحسبان التركيب الاجتماعي لكل قوة من هذه القـوى الـذي هـو بطبيعة الحال تابع لدرجة التقدم الاجتماعي في القطر الذي تقوم فيه هذه القوة: قد تكون قـوة في صف التحرر في قطر من الأقطار العربية فيشكل نشاطها جزءاً من حركة التحرر الوطني في هذا القطر وقد تكون هنالك قوة من ذات التركيب قطر آخر في صف ضد التحرر فيشكل نشاطها جزءاً من الحركة الرجعية. ومن الواضح أن مثل هذا التحليل لقوى التحرر في وطننا يفيدنا في تقدير المدى التاريخي الذي يمكن أن تكون فيه كل قوى مفيدة لدفع عجلة التقدم إلـى

الأمام. وإن المؤتمر الشعبي للقوى التقدمية يمكن أن يكون منطلقاً جيداً لإنجـاز هـذا العمـل الضخم.

ثالثاً: العمل بكل استطاعتنا لرفع القدرة القتالية لجيوشنا النظامية في كل ظروف المعركة.

رابعاً: العمل على تعبئة الشعب العربي بأجمعه في منظمات مقاومة مسلحة، وتوفير ما يلـزم لكل منظمة من هذه المنظمات من وسائل المقاومة في كل ظرف.

خامساً: النضال في المجتمع الدولي للمساعدة على تكتيل كل ما يمكن من القوى الدولية ضـد المستعمرين والصهاينة.

سادساً: النضال ضمن الحركات التقدمية العالمية للمساعدة على تكتيل هذه القوى وتوحيـدها أمام المستعمرين. وأن التسلح بالنظرية العلمية الصحيحة هو أساس النجاح فـي مثـل هـذا النضال. بالتقارب بين المناضلين لا يقوم على العواطف وإنما على النظرة العلمية المشتركة.